من اسرار الكون والخلق :

الفلك والقرآن

للدكتور محمد جمال الدين الفندى

أستاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى
أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

الكون فى نظر العلم حدث من الأحداث ، بدأ بفراغ لانهائى أخذ ينتشر فيه بخفة ولأول مرة منذ أكثر من ٥ آلاف مليون سنة الغاز الكونى ، وهو الايدروجين ، ثم تكدس هذا الغاز نسبيا بفعل الدوامات فى حجوم هائلة هى السدم ، كما تكدس بدرجات أكبر داخل السدم فى مراكز شتى هى النجوم والشموس التى بنيت منها المجرات ، ثم تفجر بعض النجوم الى كواكب ومنها الارض .

ولقد سجلت الحوادث الكونية التى توالت منذ بدء العالم بين طياته كما يسجل الفيلم تفاصيل أى رواية سينمائية ، وما زالت الحوادث تمر تباعا والمناظر تتغير وتتبدل ... وما زالت قصة الكون مستمرة . ولم يكن من مخلوق على الأرض ليدرك هذا كله ويلحظه ويستوعبه سوى الانسان الذى منح الوعى والعقل ، والذى تعلم واستخدم العلم فى تتبع هذه القصة وفى استعراض فصولها منذ بدأت معاول الخلق ، أو منذ بدأ تسجيل الفيلم . (وعلم آدم الأسماء كلها) .

ولقد تحدثت الكتب السماوية أيضا عن بعض أجزاء هذه القصة الخالدة ولخصتها لنا حتى النهاية ، وكان طبيعيا ان توجد هوة عميقة بين العلم المتطور بالالفاظ والايمان ، وبتقدم العلم أخذت هذه الهوة فى التلاشى ، الا انها لا تزال توجد فى مخيلات الكثيرين من غير المؤمنين بالعلم أو غير المؤمنين بالدين . ولقد شهد التاريخ وهو لا يزال يشهد خصاما وتفرقة بين رجال

العلم ورجال الدين . ولست أعتقد ان خصاما كهذا تنادى به الأديان السماوية أو تحث عليه ، فهذا هو الاسلام حض على التفكير فى أسرار السموات والأرض ، ودعا الى ادراك حقيقة الوجود الذى لم يخلق باطلا .

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . الى غير ذلك من الآيات التى تحتم علينا ان نقف على كل ما هو جديد فى العلم بدلا من ان نجمد ولا نحاول مسايرة الركب .

وأنا لا أدعى ان كل ما وصل اليه العلم يمثل الحقيقة المطلقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فبعض النتائج العلمية فى تطور مستمر ، كما انى لا أدعى ان الكتب السماوية هى مراجع علمية بالمعنى المعروف ، ولكنها تحتوى ولا شك على قدر من القصص والتشبيهات العلمية التى تناول أغلبها النشأة الأولى وقصة السموات والأرض ، والتى تستعرض أو تلفت أنظارنا الى ما أمامنا من ظواهر كونية نلمسها تدل على أيادى الله وأساليبه فى الخلق ، ثم هى تحدثنا عن علة وجودنا . « وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون » .

ويقول فريق من الدينيين « أن الله تعالى خلق الدنيا من نور محمد » ويصفون كيف ان محمدا (أو نور محمد) كان يسبح حول العرش قبل خلق الدنيا ، أما أنا فأرى ان مثل هذا القول انما يرمز الى ان الله تعالى سبق فى علمه أن من ذرية البشر الذين سيرثون الأرض والذين سيرتكبون الخطايا ويفسدون ويسفكون الدماء ، سيجىء رجل لن يخطىء قط ولن يغفل عن الذكر ما دام حيا ، ولهذا استحق الجنس كله ان يوجد من أجل محمد صلى الله عليه وسلم ومن تمثل به من السابقين واللاحقين . ولعل فى ذلك شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم اسمى مما يصوره الدينيون . وقد تكون تلك الأسباب هى حقا علة وجودنا وخلقنا ، والحق اننا اذا أردنا ان نجعل من الكون وقصته طريق معرفة فكرية نقبلها ، أو موضع ايمان

ومشاعر انسانية وروحية نرتاح اليهـــا ، نجد ان الكون مظهر من مظاهر الألوهية ، وانه انما يوصلنا الى معرفة الله تعالى ، وان الله وحده هو الذى يعطى الأشياء معناها ، فهو الذى يكتب ويخرج ويتم قصـــة الكون . فاذا أردت الحقيقة ، واذا أردت ان تستمتع بالمعرفة وان يستقر فكرك ويرتاح بالك فلتتصل بالله لترى جانبا من هـذا كله ، أو لتراه كاملا ، والا فانك لن ترى شيئا .

« أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟

ونحن عندما نحاول ان نجابه العلم الطبيعى بهذا السؤال : لماذا خلقنا ؟ نجده يعجز عن الاجابة ويقف عند حد تصوير الكون فى صورة لا معنى لها ولا هدف . والحق ان وظيفة العلم الطبيعى انما تقتصر على سرد الحـوادث الكونية وتفسير الظواهر الطبيعية ووظائف الأعضاء الحية ، والأساس فى كل هذ االتجربة فى المعامل والقياس الدقيق ، ومعلمنا الكون نفســـه منذ وجد ، وما سجل بين طياته من حوادث .

ولكن حتى بعد كل هذا الجهد ، هل النتائج العلمية التى نحصل عليهـا تكون جميعها فى حكم الأمور المطلقة التى لا يتطرق اليها الشك ؟ ان أكبر الأمور المسلم بها عندنا هى القوانين الرياضية ، ونحن نفترض فيها الكمال، خصوصا تلك التى تنصب على عدم الحركة (قوانين الستاتيكا) ، ولكن هذه القوانين لا معنى لها بغير قوانين الحركة (أو الديناميكا) التى لا تمثل الحقيقة المطلقة فى شيء ، بل هى تعبر عن أشياء بالنسبة لأشياء أخرى .

والذين لا يؤمنون بالعلة ويعتنقون مبادىء مثل مبدأ الصدفة لا يمكنهم حتى التسليم بأن أبسط العمليات الطبيعية الابتدائيـة التى تجرى فى الذرة وما دونها مثلا لا تخضع لمبـادىء معينة مثل قانون عدم فناء الطاقة ، رغم ان هذه العمليات أيضا تلعب فيها الصدفة دورها . نعم ان العلم يسلم بأن عمليات انطلاق الطاقة تجرى تارة بغير رابط وتخضع لحدود خاصـة تارة أخرى ! ولكن أليس من المنطق ان تكون سائر وسائل الطبيعة اما حرة طليقـــة أو خاضعة مقيدة على الدوام ؟ بحيث تكون تلك الحالات غير المحدودة أو غير المقيدة بقانون معين من ورائها سبب غير معروف لنا ؟ ونحن فريق البشر

الذين يؤمنون بأننا مخيرون لا مسيرون لا يلزم ان تقوم فكرتنا هذه أو تستند الى فكرة الصدفة وعدم التحديد فى عالم الطبيعة . فالرجل السليم منا يتصرف بحرية عندما يكون هذا التصرف صادرا عن وحيه المطلق المجرد من أى مؤثر أو ضغط خارجى ، مثل الخوف أو الجبر ، وهذا هو المعنى الحقيقى لكلمة مخير ، فهو لا يعدو حدود الحرية الشخصية ، ولكن ليست هناك أعمال بدون أسباب ، وليس معنى الحرية فى التصرف عدم وجود الأسباب الدافعة له .

ولقد كانت الأرض فى نظر الأقدمين هى مركز الكون ، وكانت الشمس عندهم بمثابة السراج الذى ينيرها ، وهى تغيب كل يوم طلبا للراحة . أما القمر والنجوم فقد رأوها حلية أو مصابيح معلقة فى كبد السماء . وبعد صراع مرير بين العلم ومحاربيه عرف الانسان ان الأرض هى التى تدور حول الشمس كتابع لها ، ثم لاحظ أغلب توابع الشمس وميزها ككرات هائلة من الصخور والمعادن غير الملتهبة وأخذ يرصدها ، خصوصا بعد استخدام التلسكوب منذ نحو ٣٠٠ سنة خلت ، الى ان تم كشف المجموعة كلها فى هذا القرن ، وهى عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشترى - زحل - يورانوس - نبتون - بلوتو ، وتدور هذه الكواكب حول مركزها الشمس التى تحتوى على نحو ٩٩٫٨٦٪ من مادة المجموعة بأسرها . وفى مجرتنا كغيرها من المجرات آلاف الملايين من الشموس والنجوم .

وما الشموس والنجوم الا غازات ملتهبة أو متوهجة ، ومن أهم أنواعها النجوم البراقة أو فوق البراقة ، وهى التى أتاحت لها الظروف بسبب سرعتها البطيئة نسبيا وسط تجمعات الغاز الكونى ان تجذب حولها أكداسا مكدسة من غاز الأيدروجين ، فعظمت حجومها ، وتفجرت فيها الغازات بوفرة وازداد لمعانها ، ثم خلفت وراءها حفرا عميقة أو ثقوبا كالأنفاق فى الفراغ مصداقا لقوله تعالى : «والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب» .

(البحث مستمر)